Copyright © 2011 - 2020 Ali Talib, All Rights Reserved

Ali Tal!b

Article

علي طالب .. وحالة التساؤل

علي طالب.. وحالة التساؤل

عبد الرحمن منيف

مجلة البحرين الثقافية/ العدد 27/ كانون الثاني (يناير) 2001

المصورون الذين يطرحون، من خلال العمل الفني، أسئلة على المشاهدين قليلون، لأن السائد أن يكون العمل الفني إجابة على تساؤل، أو تحقيقاً لرغبة وطموح، أي أنه جواب وليس سؤالاً. هكذا يفعل أغلب الفنانين، وهكذا تعود المشاهدون. لذلك يجتهد الفنان أن تكون لوحته مكتملة، محكمة كي تقوى على إيصال رسالة، وحين يراود الفنان شك أو قلق من أن الرسالة التي تحملها لوحته قد لا تصل، أو ربما يشوب وصولها بعض الاضطراب، فلا يتردد في أن يمنحها عنواناً دالاً، وأغلب الأحيان يكون العنوان فخماً ضاجاً، ليضمن عدم إمكانية وقوع خطأ في قراءة اللوحة!

هذه هي العادة، أما أن تحل الأسئلة في اللوحة مكان الإجابات، أو أن ينكسر جزء من محيط الدائرة ليتسرب شعور بعدم اليقين أو شبهة حيرة، فأمر غير مألوف وقد يثير الظنون، وإذا حصل، وهو قليل، يترك علامات التعجب، إذ لابد أن يكون وراء ذلك عجز في قدرة الفنان أو نقص في أدواته.

هكذا يفترض المتلقي في، ومن العمل الفني، وهكذا يمارسه الفنان، أي أنه جواب وليس سؤالاً. وهو بمعنى ما، يقين وعمل ناجز، خاصة حين تتداخل الأمور وتختلط، لذلك ليس من السهل أن يُقبل الفن كسؤال، كما لا يتم التسامح معه إن تحول إلى احتمال أو حيرة. وحين يحصل ذلك، بشكل ما، ينظر إليه الكثيرون بسلبية ويعتبرونه نقصاً في المعرفة أو الكفاءة، تماماً كما تبدو صورة الأب أو المعلم بنظر الصغار فيما لو أعلن عدم معرفته، أو حين يظهر عجزه عن القيام بعمل ما، فالصغار يفترضون في آبائهم والمعلمين أنهم مثال للمعرفة الكاملة، وأنهم مثال للقوة الكفاءة في مواجهة أي عمل !

الفنان حين يطرح إنجازه كتساؤل، أو يعتبره مجرد احتمال من احتمالات عديدة، يضع نفسه في الموقع الصعب. إذ يساء فهمه أولاً، ثم يصبح عرضة لإساءة التقدير، خاصة من حيث الكفاءة. فإذا ترافق ذلك مع تفسير أو تبرير، أو

ترافق مع مواقف ونظرة وسلوك، فتصبح القضية أكثر تعقيداً، وتحتاج إلى ما ينقضها، أي إظهار الجوانب الإيجابية التي تخفي غالباً في زحمة الشائع والمبتذل، أو التي تضيع في ركام السائد، حيث يعتبر الكثيرون أن الفن استراحة سهلة، وأنه تلبية للحاجات التي يمكن أن تُشبع بوسائل أخرى عديدة، فما فيها التبادل، أو عمليات الإحلال، كما هو حال الأمور الثانوية القابلة للتعويض أو للاستغناء عنها.

هذه المقدمة قد تكون ضرورية عند الحديث عن علي طالب. فهذا الرسام الذي وُلد في البصرة، عام 1944، ودرس الفن في بغداد، وتخرج من أكاديمية الفنون في منتصف الستينات، كما واصل دراسته واطلاعه في القاهرة في منتصف الستينيات... هذا الفنان يمثل ويلخص حالة التساؤل التي أشرنا إليها، أي أنه بدا قلقاً، باحثاً، متسائلاً. وكانت هذه الصفات تميزه عن غيره منذ البداية، أو تجعله مختلفاً، بمقدار ما، عن غيره من الفنانين. وبمرور الوقت أصبحت هذه الصفات ملازمة، بحيث تحول إلى نموذج لهذه الحالة التي تتطلب التأمل والقراءة، لأنها حالة، رغم ندرتها، تمثل حالة صحية، إذ تحول التعامل مع اللوحة إلى إعادة صياغة مشاركة في بنائها، وتعطي لارتباطنا بالفن صيغة جادة، لا تولد المتعة الحقيقية فقط، بل وتدخلنا من الباب الضيق، كما يقال، باب التجربة والمشاركة، وتتيح لنا أن نعايش، مع الفنان، المراحل التي تمر بها اللوحة.

ومن أجل الدخول إلى عالم هذا الفنان، لابد أن نأخذ بعين الاعتبار طبيعته الخاصة وتكوينه، ثم المرحلة التاريخية التي عاش خلالها، وما تجاذب تلك المرحلة من تجارب وخيبات، خاصة في العراق، وما انتهت إليه من نتائج. هذه المناخات، بعواملها المتعددة وتأثيراتها، كونت له مزاجاً ونظرة أقرب إلى الحزن، ولذلك فإن إحساسه بالفجيعة، كما يقول، قديم. وربما تكون مدينته الأولى، البصرة، عاملاً، إن ذلك مجرد افتراض يحتاج إلى تدقيق ثم إلى استكمال، فإن يولد الإنسان في هذه المدينة تحديداً، وخلال تلك الفترة بالذات، فإنه أولاً يواجه عالماً مضطرباً مواراً، خاصة وأنه يطل على البحر، أو على منفذ يؤدي إلى البحر. ومعنى ذلك، ثانياً، أن هذه المدينة نهاية الصحراء وبداية عالم المياه الفسيح، بكل ما يعنيه ذلك من رغبة اكتشاف الآخر ورغبة المغامرة والوصول إلى الأماكن القصيّة. فإذا أضيف: الذاكرة التاريخية للمكان، والمتمثلة بقصص المغامرات والعجائب يرويها المسنون، والتي ترد في الكتب التي خلفها الأقدمون، فعندئذ تكون الحصيلة نداء لا يهدأ يدعو إلى السفر والمغامرة، ومعهما التساؤل عما وراء هذه المياه من عوالم وغرائب.

لقد كانت البصرة تاريخياً، المدينة التي تستقبل وتودع باستمرار، إذ بمقدار ما تغري بالسفر وركوب البحر إلى الأماكن البعيدة والمجهولة، فإنها الميناء الذي يستقبل الآتين من كل الأصقاع، والذين يحملون معهم القصص والأغاني والكنوز والطبول. ولذلك فإن غناء البصرة وقصصها وإيقاع طبولها تختلف عن قصص الداخل، وعن أغاني الأهوار ورقصات الجبال. وهذا ما يمنح أبناءها نكهة مختلفة عن سكان الداخل، فهم أقرب إلى التسامح والوداعة، وأقدر على فهم الآخر والتعامل معه، كما أنهم بالغو التنوع جامحو الخيال.

والنهران، دجلة والفرات، اللذان قطعا آلاف الأميال في رحلتهما الحافلة، يتحدان وهما يقتربان من البصرة، أما وهما يمتزجان في شط العرب، فإنهما بمقدار ما يحملان رائحة الجبال التي انحدرا منها، ثم رائحة الصحراء فالأهوار، يكتسبان من خلال التقائهما ثم امتزاجهما، صفات البحر العظيم. وربما تكون البصرة من المدن القليلة في العالم التي يظهر فيها المد والجزر بهذا الجمال والمهابة والغرابة. ولعل هذا ما يعطي المكان طبيعة متغيرة باستمرار، وما يعطي للزمن مفهوماً مغايراً للأماكن الأخرى. كما يبدو الليل والنهار تحت هجوم الماء أو انحساره، وكذلك القمر حين يظهر أو عندما يغيب.. كل ذلك يضفي على الأشياء صفة متحولة متغيرة، أي ليس لها شكل واحد، أو حالة ثابتة. وقد يكون من

تأثير ذلك ما اكتسبه علي طالب من نظرة إلى المكان والزمان، وبالتالي جعله يعبر بطريقة مختلفة عن زملائه فناني الداخل، سواء باختيار شكل الزمن وحركته، أو طريقته في رؤية المكان، وكيف يتبدل بحكم قوى ظاهرة وأخرى خفية. وهكذا تظهر العلامات وآثارها وانعكاساتها في حركة الأشياء، وتغير مواقعها وعلاقتها بما حولها، لكي تعبر عن الطاقة الكامنة فيها.

أما أن يكون الإنسان على حافة الصحراء وعند أطراف الماء، معاً، وأن يكون الآخر عدواً وصديقاً في نفس الوقت ويأتي في أغلب الأحيان من ذات الجهة، أي جهة البحر، وأن تكون الأشياء الآتية من بعيد كنوزاً وعبيداً وهموماً وعجائب، ولابد من التعامل معها جميعاً، فإن حالة من التوجس واختلاط المفاهيم والعواطف تزدحم دوماً في العقول والقلوب، وتستدعي مقداراً غير قليل من الأسئلة. ثم أن تراكم الأسئلة دون القدرة على تقديم الإجابات، يولد الحيرة ثم الحزن، ولعل هذا ما يميز الكثيرين وهم يرقبون حركة البشر والأشياء دون القدرة على تغيير هذه الحركة أو التحكم بها.

صفات مثل هذه للمدينة، أي البصرة، وقد تكبر هذه الصفات وتتضخم في بعض المراحل، تفسر السمات المتقاربة والموحدة لناسها، إذ أن المدن تترك بصماتها، وبالتالي تأثيرها على البشر والسلوك والنظرة. صحيح أنها تفعل ذلك بكل واحد على حدة، بمفرده، وبطريقتها الخاصة. كما أن استجابة الأفراد تختلف وتتفاوت تبعاً لعدد غير محدد من العوامل، لذلك فإن سكان المدينة بمقدار ما تجمعهم صفات، فإنهم يختلفون فيما بينهم بصفات، وكأنهم أبناء مدن متعددة ومتباعدة. وهذا ما شأنه أن يطرح الأسئلة أكثر مما يقدم الإجابات، وما يجعل المدن واحدة ومتعددة في آن.

ولعل هذا أحد الأسباب الذي جعل علي طالب، خاصة بعد أن أنهى دراسته وغادر بغداد عائداً إلى مدينته، البصرة، يستعيد طريقة هذه المدينة في مناقشة قضايا الفن والفكر، وأن يكون مسكوناً بالسؤال، ثم أن يطور طريقاً خاصاً به، ليس فقط من خلال الانتماء إلى أسلوب والتأكيد عليه عملاً بعد آخر، مرحلة بعد أخرى، وإنما من خلال البحث أيضاً عن صفة أو روح تلبي أو تجيب على الأسئلة التي يطرحها.

هذه العوامل والمناخات قد تضيء جانباً من مشوار علي طالب الفني، إذ بمقدار ما يقترب المناخ التشكيلي العام السائد، فإنه ميال بنفس المقدار للسير في طريق محاذ للطريق الشائع، كما يقول عنه أحد النقاد وكان الوحيد من أبناء جيله من الفنانين الذي ظل محافظاً على اضطرابه الشكلي، وهذا يعني، تحديداً، أنه دائم البحث عن الجديد، ولا يميل، كما لا يثق، أن يتكرس ضمن أسلوب أو صيغة يُعرف بها. يقول رداً على سؤال "كل ما أنجزته في وقت سابق يشكل جزءاً ميتاً مني" ولأنه ما زال يبحث ويحاول، ولم يصل بعد، إن كان ثمة وصول، فهو يقول عن نفسه: "أمقت التكرار، فقد أصبحت لا أشعر بالحياة إلا حين البحث عن الجديد..."

هذه الروح التي تجلت في أجيال متعاقبة من المبدعين العراقيين، خاصة في مجال الفن التشكيلي والشعر، وضع واتها جواد سليم وفائق حسن وشاكر حسن آل سعيد وجبرا إبراهيم جبرا في مجال التشكيل من خلال الجمعيات الفنية التي أنشؤها، والبيانات النظرية التي تشكل مفاهيم وروابط بين الملتزمين بها، وأيضاً المعارض الفنية التي تجمع بين الأشخاص والأساليب المتقاربة. ووضع نواة هذه الروح في الشعر السياب والملائكة والبياتي، وقدموا إنجازاً إبداعياً ونظرياً لترسيخ هذه الخطوة. وكانت النتيجة إنجازاً باهراً في مجال الرسم والنحت والشعر. خاصة وأن هذا الإبداع في مجال التشكيل ارتكز على جذور من الحضارات القديمة، واستفاد من الإنجاز الذي قدمته الحضارة الإسلامية في مراحل ازدهارها، وشفع الرواد ذلك بما استفادوه من الحضارة الأوروبية، بتأثير من دراستهم واحتكاكهم.

ظلت هذه الروح موجودة ومتفاعلة، وتجلت في تعدد الأساليب والمفاهيم النظرية، وفي تكوين الجمعيات وتزايد الاجتهادات، ثم الحوار والتفاعل بين الأساليب والمدارس. إلى أن جاءت ثورة تموز 1958. وكانت حصيلة لمخاض طويل، فعكست كل ما كان يدور في الخفاء، أو تحت السطح. وعبرت عن تطور إضافي في مجال الفكر والسياسة وصيغ العلاقات. وقد تواصلت هذه الحيوية في بعض المجالات، وتراجعت في مجالات أخرى، إذ استنزفت القوى السياسية والفكرية نفسها وبعضها بسبب الصراعات الجانبية واحتدام المواقف على الشعارات والسيطرة. كما أن غياب بعض الرموز الفنية في وقت مبكر، كجواد سليم، أدى إلى اضطراب المسارات، وإلى تراجع في بعض الحقول، وأدى أيضاً إلى كم كبير من الأسئلة وسيطرة حالة الحيرة، خاصة وأن تطورات عديدة حصلت على مستوى المنطقة ثم على مستوى العالم. ولكي نقدر حالة الاحتدام التي كانت تسيطر على الفن والفنانين خلال تلك الفترة، يجدر بنا أن نستعيد فترة الستينيات في العراق ثم في المنطقة، وصولاً إلى العالم.

لقد كانت مرحلة صراعات وتحولات كبرى، وظهور أفكار وأساليب ومدارس في حقول المعرفة والفن. وكانت أيضاً المرحلة التي كشفت وتكشفت عن مقدار كبير من التخلف العربي، ومدى النواقص والتشوهات الموجودة في هذا الواقع، وتالياً ضغط الضرورة للتغيير والانتقال لمواجهة هذه التحديات، سواء في المفاهيم والأساليب أو المستوى، مما يتطلب ثورات في مجالات متعددة، بما فيها الفن.

وسط هذا المناخ أنجز علي طالب دراسته الأكاديمية، ولأن ثورة تموز وإنجازاتها خبت وأخذت تتراجع، فقد اندفعت أكثر من مجموعة، وفي حقول متعددة، تبحث لنفسها عن حلول وآفاق جديدة تستوعب تطلعاتها وطموحاتها. وهكذا توصل علي طالب ونفر من أصدقائه إلى تشكيل جماعة "المجددين"، إلى جانب التشكيلات الأخرى التي أنشأها فنانون آخرون.

إن الدافع لتشكيل جماعة المجددين هو عدم الرضى عما هو قائم، والبحث عن الجديد، والتواصل مع حركة الفن في العالم. أي أن الدافع، بالدرجة الأولى، سلبي. فالذين يكونون هذه المجموعة، يتفقون، تقريباً، على الرفض، ولكن لكل منهم أسلوبه ورؤياه الخاصة، وبالتالي تطوره الذي قد يختلف نوعياً عن الآخرين. وهذا ما سوف يتضح لاحقاً، وخلال فترة ليست طويلة، سواء من حيث تطور كل واحد من المكونين لهذه المجموعة بطريقته الخاصة، أو من حيث المدة الزمنية التي سيعيشها هذا التجمع.

فإذا أخذنا علي طالب بوجه الخصوص، نجد أن علاقته بهذا التجمع تضعف ما أن غادر بغداد عائداً إلى البصرة. كما أن المشهد الواقعي الذي ميز أسلوبه في مرحلة معينة، لم يلبث ان تراجع واتجه نحو التلخيص أولاً، ثم أخذ يقترب من التجريد، وبطريقته الخاصة بعد ذلك. هذا مع التأكيد أن الأسئلة التي يطرحها على نفسه، ويبحث لها عن إجابات، وحالة التجريب التي ميزت الكثير من أعماله خلال هذه المرحلة، ثم مناخ القلق والحيرة الذي طبع تجاربه، هذه الصفات ظلت ظاهرة في مسيرته خلال هذه الفترة، خاصة وقد أضيف عامل جديد وهام: هزيمة حزيران 1967.

إن الرواد بالخطوات الكبيرة التي أنجزوها على مستوى الرسم والنحت، وأيضاً بالجهد النظري لتأسيس مرتكزات معتمدة على جذور قوية، استطاعوا الوصول إلى الجذور الرافدينية ثم الإسلامية، وقد ترافقت هذه الاستفادة من حركة الفن العالمية، من حيث الاستقبال والتأثر والمتابعة. وفي نفس الوقت محاول اكتساب شخصية محلية لها صفة المكان والمرحلة التاريخية... هذا الإنجاز الذي قدمه الرواد لم يحل دون حركة الأجيال، وأصداء ما يحصل في الأماكن الأخرى، ثم حركة التفاعل، مما جعل الجيل الذي تلا الرواد ينظر لتأكيد اختلافه مع الذين سبقوه في محاولة لكي يتميز وأن يقدم

[illegible]
رؤياه ثم إنجازه الخاص به، وأيضاً للبحث عن شخصية تجعله مختلفاً. ولقد استطاع عدد من أفراد هذا الجيل من الفنانين تقديم إنجازات فنية لافتة للنظر، وتمكن المتفوقون منه إثبات جدارتهم ومواصلة المشوار، وكان علي طالب واحداً من هؤلاء.

Copyright © 2011 - 2020 Ali Talib, All Rights Reserved

Designed and Powered by ENANA.COM